الرِّسَالة الرَّابعة : لغة الشَّيْطان مع الخارجين عن حدود الله

عنوان هذه الرِّسَالة يتعامل مع فئة الخارجين عن حدود الله من اليهود والنَّصارى والعصاة من المسلمين ، حيث صال الشَّيْطان وجال معهم حتى تمكَّن من قلوبهم وسيطر عليها ، فلم تبد إعراضًا أو اعتراضًا.

وقد درَّس الشَّيْطان لهذه الفئة برنامجًا يضمُّ كثيرًا من الدَّورات المختلفة , ووضع لهم كثيرًا من المناهج المتعددة والمتجدِّدة ، مع تنوُّع في الأساليب وبراعة في التصوير حتى أوهمهم أن الحقَّ على أيديهم والنصرة في اتِّباعهم ، وأن سبيلهم هو سبيل الهدى ، وهديهم هدي الحقِّ , وأما غيرهم فهو على الباطل وإن تصوَّر أنَّه على الحَقِّ ، ف ﴿ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ﴾[1].

وقد أقسم الشَّيْطان في حواره مع ربِّه – ﷻ – بأنَّ له في بني آدم نصيبًا مفروضًا , ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ﴾[2] ، وهؤلاء هم نصيبه ، يعرض عليهم سُبُله وينمِّيها في قلوبهم ، ويتعهَّد أوان حصادها فتثمر عقولا ضالَّة ، وقلوبًا ميِّتة قد أضلَّتها الشَّهوات ، وطغت عليها الماديَّات فانقادت لعالم الضياع والفساد، وضلَّت عن عالم الهدى والرَّشَاد .

وقد علم الشَّيْطان بأهواء هؤلاء وحقيقة منطقهم ففرض سيطرته وهيمنته عليهم ، فألَّف مجلَّدات منوَّعة في امتلاك قلوبهم وتوجيه نواصيهم ، فدوَّن في جميع صفحاتها ، وسطَّر في كل سطر منها سبيلا من سُبُله ، فتعدَّدت الأشكال واختلفت الألوان ، والصفحات الآتية تبيِّن حقيقة ذلك .

الصُّورة الأولى : سبيل الأزِّ (أ ز ز)

عن طريق الهمس الخفي والخطرات الدَّنيئة والوسوسة التي تعتلج في الصدور ينفذ الشَّيْطان إلى قلب بني آدم ، ويسيطر على حركاته وسكناته ، ولكنَّه في هذا السَّبيل يدفعه إلى طريق الباطل دفعًا ، ويمنعه من قبول الحق بطرًا ورياء ، فتهيَّج مشاعره في طريق

(1) النمل من الآية 24 .

(2) النساء من الآية 118 .

الباطل ، وتتَّكسر على أبوابه كلُّ طرق النَّجاة ، فيصبح بينه وبين الإيمان سدًّا،وكذلك بينه وبين قبول شرع الله في الأرض حجابًا مستورًا .

وهذا هو سبيل الكافرين الذين اخترقت سهام الشَّيَاطين قلوبهم فسكنت فيها واطمأنَّت ، حتى خرَّبت ودمَّرت وأماتت فيها كل سُبُل الهداية فتركتها سوداء لم يسطع نور الحق فيها .

وسبيل (الأزِّ) هو عنوان هذه الصُّورة التي يقول فيها ربُّنا – ﷻ-: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾[1] .

فالأزُّ هو : التهييج والإغراء[2] ، وأزَّه يؤزُّه أزًّا : أغراه وهيَّجه، وأزَّه : حثَّه ، وأزَّه أزًّا وأزيزًا مثل هزَّه ، وأزَّ يؤزُّ أزًّا :وهو الحركة الشَّديدة ، وأزَّت القدر تؤُزّ أزًّا : إذا اشتدَّ غليانها، وقيل:هو غليان ليس بالشَّديد[3] .

وأما أزُّ الشَّيَاطين الكافرين في الآية فهي تزعجهم إلى المعاصي وتغريهم بها[4] ، فأزَّه الشَّيْطان : هيَّجه بالوسوسة والإغراء على الكفر والعناد والعصيان[5] .

وفي هذه الدَّلالة إشارة إلى عدم استقرار حياتهم وعدم اطمئنان قلوبهم ، والفوضى الدَّاخلية التي يعيشون فيها ، فلا هدف ولا غاية ، ولكنَّك تجد قلوبًا حيارى بلا عنوان ولا دليل فـ " الأزُّ : الهَزُّ والاستفزاز الباطني ، مأخوذ من أزيز القدر : إذا اشتدَّ غليانها . شَبَّه اضطراب عقائدهم وتناقض أقوالهم واختلاف أكاذيبهم بالغليان في صعود وانخفاض وفرقعة وسكون ، فهو استعارة فتأكيده بالمصدر ترشيح[6] " .

فالرسول – ﷺ – قد دعا قومه إلي توحيد الله سبحانه وتعالي ونبذ عبادة الأوثان ، ولكن الشَّيَاطين من وراءهم وفي قلوبهم تدفعهم إلي رفض الحَقِّ وقبول الباطل ، فاتَّجهوا نحو قبلة الشَّيْطان ، أينما حَلُّوا أو ارتحلوا ، ورفضوا شريعة الرَّحمن سبحانه وتعالي ، " وهذا من عقوبة

(1) مريم الآية 83 .
(2) الصحاح 864/3 .
(3) لسان العرب 72/1 .
(4) معاني القرآن للفراء 172/2 . وينظر : معاني القرآن وإعرابه 345/3 .
(5) القاموس القويم 18/1 . وينظر : المفردات ص 18 .
(6) التحرير والتنوير 165/16 .

الكافرين أنَّهم لما لم يعتصموا بالله، ولم يتمسَّكوا بحبل الله ، بل أشركوا به ووالوا أعداءه من الشَّيْاطين سلَّطهم عليهم ، وقيَّضهم لهم ، فجعلت الشَّيَاطين تؤزُّهم إلي المعاصي أزًّا، وتزعجهم إلي الكفر إزعاجًا ، يوسوسون لهم ، ويوحون إليهم ، ويُزَيِّنون لهم الباطل ، ويقبِّحون لهم الحقَّ ، فيدخل حبُّ الباطل في قلوبهم ويتشرَّبها ، فيسعى فيه سعي المحقِّ في حقِّه ، فينصره بجهده ويحارب عنه ، ويجاهد أهل الحَقِّ في سبيل الباطل ، وهذا كله ، جزاء له على تولِّيه من وليه وتولِّيه لعدوه ، جعل له عليه سلطان ، وإلا فلو آمن بالله ، وتوكَّل عليه ، لم يكن له عليه سلطان ، كما قال تعالي : ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾[1] ".

فكأنَّ هذه الآية تُجَسِّد ملامح قصَّة تبدو فيها شخصية الرسول – ﷺ – في دعوته كُفَّار مكَّة إلي عبادة الله وتوحيده ، ثم شخصية هؤلاء المستهزئين الذين رفضوا هذه الدعوة وأصَرُّوا علي رفضها ، ثم دور الشَّيْطان الذي دفعهم وحرَّضهم علي هذا الرَّفض ، وزيَّن لهم الباطل فظنُّوه حقًّا فاتَّبعوه ، وأخيرًا تسليط الله الشَّيَاطين عليهم تدفعهم إلى قبول الباطل وتحثُّهم عليه وتغريهم به فيتمكَّن في قلوبهم حتى طمست ورَان عليها فأصبحت كالحجارة أو أشد قسوة ، فـ" إرسال الشَّيَاطين عليهم : تسخيرهم لها وعدم انتفاعهم بالإرشاد النبوي المنقذ من حبائلهم ، وذلك لكفرهم وإعراضهم عن استماع مواعظ الوحي [2]".

فقد ألغي هؤلاء عقولهم ، وصمدوا بكل ألوان القُوَّة والعنف والشِّدَّة في وجه الدَّعوة المحمديَّة تلبية لنداء شياطينهم وحرصًا علي طاعتهم ، فتركهم الله لهم، توجِّههم حيث أرادوا دون ضابط من إيمان، أو نازع من ضمير يعزِّيهم على ما فقدوه من حلاوة الإيمان ، فأصبحوا والشَّيَاطين سواء ، تجمع بينهم الصداقة بكل ألوانها وأشكالها ، حيث " قال ابن زيد في قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ فقرأ : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾[3] " .

---

(1) النحل الآيتان 99 ، 100. تيسير الكريم الرَّحمن ص 500 . وينظر : جامع البيان 253/18 ، ومعاني القرآن وإعرابه 345/3 ، 346 ، وتفسير مقاتل بن سليمان 322/2 .

(2) التحرير والتنوير 165/16

(3) الزخرف الآية 36 . جامع البيان 235/18 .

وهكذا تتَّضح صورة هؤلاء الذين رحلوا عن عالم الإيمان إلى عالم الكفر تدفعهم الشَّيَاطين إلى هذا العالم دفعًا بشتَّى الطُّرق والحِيَل دون حول منهم أوقوَّة ، بل هو الاستسلام المطلق دون قيد أوشرط ، فالنَّهْر عندما يتدفق ماؤه بغزارة يدفع كل شيء أمامه ، فهم كذلك يدفعون ويمنعون كل خير يصل إلى قلوبهم ، وذلك لسيطرة الشَّيَاطين عليهم ، فالباطل قد تمكَّن منهم وغزا أفئدتهم ، وأغلق جميع أبواب الرَّحمة في قلوبهم، فأصبح من المستحيل العودة لحظيرة الإيمان ، والتخلِّي عن سبيل الشَّيطان ، فالسِّبَاحة ضد التَّيار لا يرجى لصاحبها نجاة حتى تأتي كلمة الفصل ويغلق السِّتار فتشخص الأبصار ويظهر أمام أعينهم الحقيقة التي ظنُّوها خيالا،﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ . لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ[1]﴾ .

الصُّورة الثَّانية : سبيل التِّلاوة (ت ل و)

صور شتَّى من ألوان الزَّيف والضَّلال يعرضها الشَّيَاطين على بني آدم ، تتلوَّن كل صورة منها بلون ما ، فيتجسَّد الباطل في كلِّ عنوان، وتحيا في القلوب الذُّنوب والآثام ، وعلى حسب دواعي الهوى يقع الاختيار ، فتسكن المعاصي القلوب قبل الدِّيار ، وأصحاب القلوب الضَّعيفة هم الذين تحكمهم الأهواء ، وتتحكَّم فيهم الشَّهوات ، فيحقِّقُ الشَّيْطان من خلالهم بغيته ، وتستقرُّ عندهم إقامته ، فيصبح أميرًا متوَّجًا في ديارهم ، له عليهم حقُّ السَّمع والطَّاعة ، فيزهو بنفسه ، وتتَّعالى صيحات كبريائه أن أقام في الأرض جسرًا يعبر به إلى قلوبهم ، وسبيلا لسلب عقولهم ، وحجبها عن الهدى والخير والرَّشاد .

والصُّورة التي يتلوَّن بها الشَّيَاطين في هذا السَّبيل تحمل هوى الإدعاء ، وإلباس الباطل لباس الحقِّ حتى يتخيَّل الرائي أنَّها حقيقة ، ولكنَّها وهم وخداع تؤدِّيها لفظة(تتلو) التي نسبت إليها في قوله-ﷻ- ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ﴾[2] .

(1) المؤمنون الآيتان : 99 ، 100 .

(2) البقرة من الآية 102 .

والتِّلاوة تحمل دَلالة القراءة ، حيث قيل ، تلَوْت القرآن تلاوة : قرأته ، وعمَّ به بعضهم كل كلام[1] .

والتِّلاوة في الآية تشير إلى ما تقرأ الشَّياطين من الباطل على عهد سليمان – عليه السلام –[2] .

واستعمل القرآن الكريم لفظ (تتلو) لما كان يزعم الشَّيْطان أن ما يتلونه من كتب الله[3].

"والذي كانت الشَّيْاطين تلته في ملك سليمان كتاب من السِّحْر ، فَلِبَهَتِ اليهود وكذبهم ادَّعَوْا أن هذا السِّحر أخذوه عن سليمان ، وأنَّه اسم الله الأعظم ، يتكسَّبون بذلك ، فأعلم الله – ﷻ – أنَّهم رفضوا كتابه واتبعوا السِّحر ، ومعنى على (مُلۡكِ سُلَيۡمَـٰنَ) على عهد ملك سليمان عليهم ، فبرَّأ الله – ﷻ – سليمان من السِّحر ، وأظهر محمدًا – ﷺ – على كذبهم ، وقال : (وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَـٰنُ) لأنَّ الله جعل الإتيان من سليمان بالسحر كفر فبرَّأه منه ، وأعلم أنَّ الشَّياطين كفروا فقال:(وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُواْ) (يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ)[4]".

فخطاب الاتِّبَاع في الآية موجَّه إلى هؤلاء " الفريق من أحبار اليهود وعلمائها ، الذين وصفهم الله – ﷻ – بأنَّهم نبذوا كتابه الذي أنزله على موسى ، وراء ظهورهم ، تجاهلا منهم وكفرًا بما هم به عالمون ، كأنَّهم لا يعلمون ، وأخبر عنهم أنَّهم رفضوا كتابه الذين يعلمون أنَّه منزَّل من عنده على نبيِّه – ﷺ – ، ونقضوا عهده الذي أخذه عليهم في العمل بما فيه ، وآثروا السِّحر الذي تلته الشَّيَاطين في ملك سليمان بن داود فاتَّبعوه ، وذلك هو الخسران والضَّلال المبين[5]".

وقد خُدِعَت اليهود بما زيَّنت لها الشَّيَاطين ، حيث " إن طائفة من الشَّيَاطين كتبوا كتابًا فيه سحر ، فدفنوه في مصلَّى سليمان حين خرج من ملكه ، ووضعوه تحت كرسيه ، فلما توفي سليمان استخرجوا الكتاب ، فقالوا : إن سليمان تملككم بهذا الكتاب به كانت تجئ الرِّيح ، وبه سرت الشَّيَاطين ، فعلَّموه النَّاس[6] " .

---

(1) لسان العرب 444/1 .

(2) المفردات ص 100 .

(3) القاموس القويم 101/1 . وينظر: الجامع لأحكام القرآن 41/2 .

(4) معاني القرآن وإعرابه 183/1 .

(5) جامع البيان 405/2 .

(6) تفسير مقاتل بن سليمان 67/1 .

وهذا الادِّعاء الذي صرَّحت به اليهود لم يكن تصديقًا لحقيقة وإيمانًا بها ، وإنَّما كان اتباعًا لهوى قذفه الشَّيْطان في قلوبهم فآمنوا به وصدَّقوه ، وهم يعلمون كذبه وافتراءه ، فـ " أبرأ الله - ﷻ - منه سليمان ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ ﴾ ، فتركت اليهود كتاب الأنبياء واتَّبعوا ما قالت من السِّحر ، ﴿ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ﴾ أي واتَّبعوا ما أنزل على الملكين ، يعني هاروت وماروت ، وكانا من الملائكة مكانهما في السَّمَاء واحد[1] ".

فاليهود إذًا قد اعتقدوا في باطلهم فظنُّوه عقيدة ؛ وذلك لأنَّه يتوافق مع أهوائهم وشهوات قلوبهم ، فلسانهم ينطق بالباطل ، وأشدُّ من ذلك قلوبهم ، ﴿ قَد بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾[2] .

فـ " لقد تركوا ما أنزل الله مُصَدِّقًا لما معهم ، وراحوا يتتبَّعون ما يقصُّه الشَّيَاطين عن عهد سليمان ، وما يضلِّلون به النَّاس من دعاوى مكذوبة عن سليمان ، إذ يقولون إنَّه كان ساحرًا ، وإنَّه سخَّر ما سخَّر عن طريق السِّحر الذي كان يعلمه ويستخدمه[3] " .

وهذا كله كذب وافتراء، وضلال وإثم مبين ، فقد يكذب المرء على نفسه وعلى غيره في أمر من أمور الدُّنيا حتى يصل إلى تحقيق هدفه فيقع في مخالفة،ولكن كيف يكذب في دينه وعقيدته ، فيدبِّر المؤمرات ويرسل الاتهامات جزافًا بلا بيِّنة ولا دليل وكأنَّه عاشق مولع بها؟.

إنَّ هذا كله من اتِّباع سحر الشَّيَاطين وما تقذفه في قلوب أوليائها المخلصين ، ولكن تلك هي البداية التي تمهِّد للنِّهاية ، والنِّهاية كما قال ربُّنا - ﷻ - : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾[4] .

الصُّورة الثَّالثة : سبيل التَّخَبُّط (خ ب ط)

تسيطر شهوة المال على كثير من البشر ، يرتعون في أنهاره وخيراته ، بين حدائقه وأزهاره

(1) السابق 1/67 ، 68 .
(2) آل عمران من الآية 118 .
(3) في ظلال القرآن 1/95 .
(4) البقرة من الآية 102 .

، تسفر وجوههم إشراقًا ، وقلوبهم نورًا وضياء عند رؤيته ، وكلَّما امتدَّ بهم العمر زادت شهوته ، يتسابقون في جمعه ومحبته ، وتذل قلوبهم لهواه ولا تنحني إلا له ، عظيم بينهم ، له كلمته التي لا تردُّ ، وسلطانه الذي لا يقهر ، حرامه وحلاله سواء ، ولكن لا يهنأ لهم بال ، ولا تستقر لهم معيشة ، قد يهدمون القواعد ، ويزيِّفُون الحقائق ، ويظنُّون أنَّهم على الحَقِّ مع علمهم أنَّهم على الباطل ، فباطلهم يتوافق مع أهوائهم فيبتدعون وكأنهم يتَّبعون ، حيارى في الأرض لا يدرون أعلى هدى أم على ضلال ؟ ، لحومهم نبتت من حرام ، يعيشون في قلق واضطراب ، يتساقطون في مهاوي الغيِّ والضَّلال ، إنَّهم أكلة الرِّبا الذين يتخبَّطهم الشَّيْطان من المسِّ .

ف (التَّخَبُّط) هو سبيل الشَّيْطان في هذه الصُّورة،والذي يوحي بدلالة القلق والاضطراب والسير على غير هدى وبصيرة ، حيث قيل : خبَطه يخْبطه خَبْطًا : ضربه ضربًا شديدًا ، وخبط البعير بيده يَخْبِط خَبْطًا : ضرب الأرض بها[1] .

والخَبْط : الضرب في الأرض على غير هدى ، وتخبَّطه : جعله يَخْبط نفسه فيما حوله يمينًا وشمالا ، أو أوقعه في الاضطراب الشديد[2].

فالتخبُّط مطاوع خَبَطه : إذا ضربه ضربًا شديدًا فاضطرب له ، أي تحرَّك تحركًا شديدًا . ولما كان من لازم هذا التحرُّك عدم الاتساق، أطلق التخبُّط على اضطراب الإنسان من غير اتِّساق[3] .

ومن صور التَّخَبُّط التي تُدَمِّر القلوب وتذهب العقول هذا العبث الذي ذهب إليه العصاة المُدَّعين الذين خَيَّل لهم شيطانهم ، ووسوس إليهم ، ونفخ في صدورهم فامتلأت به أجسادهم قيحًا وصديدًا ما زعموه بقولهم إنَّما البيع مثل الرِّبا كما حدَّثَنَا آية في القرآن الكريم يقول فيها ربُّنا – ﷻ – : ﴿ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾[4] .

(1) لسان العرب 2/1093 .

(2) القاموس القويم 1/186 . وينظر : المفردات ص 204 .

(3) التحرير والتنوير 3/82 .

(4) البقرة من الآية 275 .

ولكن بئست المقارنة ، كيف يرتدي الباطل ثوب الحَقِّ ، والشَّوهاء زينة الحسناء ، فما أصاب هؤلاء من قلق واضطراب وحيرة وضلال كاد أن يودي بهم إلى الجنون أصبح سمة يعرفون بها على رءوس الخلائق ، وما كان ذلك إلا نتيجة لهذه الادِّعاءات الشَّيْطانية والتخريفات الشَّهْوانية .

كيف يقارن الخبيث بالطَّيب ، والحلال بالحرام ، وهدوء البال بوخز الضمير ، واستقرار النفس بحيرتها ، وطيِّب المطعم والمشرب بخبيثه ، فما أصاب هؤلاء بزعمهم إلا الجنون ، وما جنت عليهم أفكارهم إلا الوبال والخسران ، فـ " الذين يأكلون الرِّبا لا يقومون في الآخرة إلا كما يقوم المجنون ، من حال جنونه[1] " .

إذًا فـ " الذي يتخبَّطه الشَّيْطان هو المجنون الذي أصابه الصَّرَع، فيضطرب به اضطرابات ، ويسقط على الأرض إذا أراد القيام[2] " .

فهذا اللفظ القرآني الوحيد الاستعمال يصوِّر ويجسِّد هذه الحالة وكأنَّها صورة حيَّة مشاهدة أمام الجميع ، فالشَّيْطان " يضربه بشدَّة في كل ناحية ، وهو تصوير لحالة القلق والاضطراب دُنْيا وأُخرى بسبب تعامله بالرِّبا[3] " .

وقد جعل الله – ﷻ – " هذه العلامة لأكلة الرِّبا ، وذلك أنَّه أرباه في بطونهم فأثقلهم ، فهم إذا خرجوا من قبورهم يقومون ويسقطون ، ويقال : إنَّهم يبعثون يوم القيامة قد انتفجت بطونهم كالحبالى ، وكلَّما قاموا سقطوا والناس يمشون عليهم . وقال بعض العلماء : إنَّما ذلك شعار لهم يعرفون به يوم القيامة ، ثم العذاب من وراء ذلك [4] " .

إنَّها صورة كريهة تأباها النفوس وتقشعر منها الأبدان ، لا أدري كيف يسعد آكل الربا بتلك الغنيمة التي اقتنسها بغير وجه حق، واغتصبها دون عناء أو جهد ؟ .

فكأنَّ السعادة عندهم في ضرب قواعد الدين وهدمه ، والسير على نهج الشَّيْطان ودربه ، فتقلُّبات الحياة لم تؤثِّر فيهم ، ولم تكن لها سلطان عليهم ولم تخالط شغاف قلوبهم ، لذلك بشَّرهم ربهم بقوله : ﴿ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾[5] .

(1) معاني القرآن وإعرابه 358/1 .
(2) التحرير والتنوير 82/3 .
(3) القاموس القويم 86/1 .
(4) الجامع لأحكام القرآن 354/2 0 وينظر : جامع البيان 8/6 ،ومعاني القرآن وإعرابه 358/1.
(5) البقرة من الآية 279 .

الصُّورة الرَّابعة : سبيل الدَّعوة (د ع و)

كلَّما أمكن عرض السلعة بطريقة جيِّدة عن طريق تزيينها وتجميلها ، ثم توفير وسائل الدِّعاية المناسبة لها كلَّما كانت إلى القلوب أقرب , وإلى القبول أولى وأفضل .

والشَّيْطان في هذا المقام يعرض بضاعته في صورة بديعة ، تخدع الأبصار ، وتلفت الأنظار وكأنَّها عنوان ورمز لأرقى معاني الوفاء والصِّدق والإخلاص ، تتحلَّى بمظاهر الحسن والجمال ، ولكنها قبيحة المخبر والجوهر ، تشبه حال المنافقين الذين تتراءى صورهم وأجسادهم أمام البشر وكأنهم يسبحون في عالم ملائكي ، ولكن الحقيقة أنَّهم والشَّيَاطين يسبحون في عالم الحقد والحسد ، ويأكلون من وعاء واحد ، قلوبهم تغلي غليان القدر رفضًا لمنهج الله ، وشهوة لاتِّباع الهوى ، فصورهم تحمل في ظاهرها جمال الأولياء ، ولكنها تخفي في باطنها طابع الأشقياء الذين صبغت قلوبهم بصبغة الفساد ، واشتاقت إلى عالم الباطل والضَّلال .

وهاهو الشَّيْطان يقدِّم في هذا السَّبيل دعوة صريحة لأوليائه موجزها اتِّباع طريق الآباء من الغيِّ والفساد ، ورفض دعوة الله- ﷻ- من الهدى والصَّلاح .

وهذه الآية الكريمة شاهدة على هذه الدَّعوة ، والتي يقول فيها ربُّنا - ﷻ - : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾[1] .

والدَّعوة – بفتح الدال – في لغة العرب : ما دَعَوْت إليه من طعام أو شراب[2] ، ولكن دعوة الشَّيَاطين لأوليائه في الآية الكريمة تحمل بين طياتها طابع إحياء سُنَّة الآباء من قبل دون سند من إيمان أو يقين، فواجبهم المقدس أن يسيرون على دربها الآن ظنًّا منهم أن تلك الأفكار تحملهم إلى سفينة النَّجاة .

فهؤلاء الأشقياء من بني آدم يزيِّن لهم الشَّيْطان الباطل ويدعوهم إليه ويرغِّبهم فيه زعمًا منه بأنَّه دين آبائهم ، فالأمجاد لن تتحقَّق إلا باتِّباعهم والسير على نهجهم .

---

(1) لقمان الآية 21 .

(2) لسان العرب 2/1387 .

" وإذا قيل لهؤلاء الذين يجادلون في توحيد الله جهلا منهم بعظمة الله : اتَّبِعوا أيُّها القوم ما أنزل الله على رسوله ، وصَدِّقوا به ، فإنَّه يفرِّق بين المُحِق منا والمُبطل ، ويفصل بين الضالِّ والمهتدي ، فقالوا : بل نتَّبع ما وجدنا عليه آبائنا من الأديان ، فإنَّهم كانوا أهل حقٍّ . قال الله تعالى ذكره : ﴿ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ ﴾ بتزيينه لهم سوء أعمالهم ، واتِّباعهم إياه على ضلالتهم ، وكفرهم بالله وتركهم اتِّباع ما أنزل الله من كتاب على نبيِّه ﴿ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ يعني : عذاب النَّار التي تتسعَّر وتلتهب[1] " .

وهذا قياس عجيب وغريب " أيتَّبِعون آباءهم ولو كان الشَّيْطان يدعو الآباء إلى العذاب فهم يتَّبعونهم إلى العذاب ولا يهتدون ... والاستفهام تعجيبي من فظاعة ضلالهم وعماهم بحيث يتَّبعون من يدعوهم إلى النَّار، وهذا ذمٌ لهم[2] " .

فهذه الفكرة التي أثارها الشَّيْطان في قلوبهم وزَيَّنها لهم , فأيقظها من غفلتها بعد ثبات عميق ظنًّا منهم أن نصرة الحقِّ على أيديهم، وإقامة الدِّين على أكتافهم ، وذلك لا يكون ولا يتحقَّق إلا باتِّباع منهج الآباء ، فانطلقوا يهتفون بها وتتعالى صرخاتهم مع أن الضَّلال عنوانها ، وجوهرها عذاب تصطلي به أفئدتهم التي لا تعي ولا تعدُّ للسؤال جوابًا ، وكذلك أجسادهم التي تحمَّلتهم في الدُّنيا وصبرت عليهم ، ولكنها ضاقت بهم ويئست من إصلاحهم ، وفي الآخرة تلعنهم جزاء ماقدَّموها قربانًا إلى النَّار .

" فهذا هو سندهم الوحيد ، وهذا هو دليلهم العجيب ! التَّقليد الجامد المتحجر الذي لا يقوم علي علم ولا يعتمد على تفكير ، التَّقليد الذي يريد الإسلام أن يحرِّرهم منه ؛ وأن يطلق عقولهم لتتدبَّر ؛ ويشيع فيها اليقظة والحركة والنور ، فيأبوا هم الانطلاق من إسار الماضي المنحرف ، ويتمسَّكوا بالأغلال والقيود . إنَّ الإسلام حريَّة في الضَّمير ، وحركة في الشُّعور ، وتطلُّع إلى النُّور ، ومنهج جديد للحياة طليق من إسار التَّقليد والجمود ، ومع ذلك كان يأباه ذلك الفريق من النَّاس ، ويدفعون عن أرواحهم هداه ، ويجادلون في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، ومن ثم يسخر منهم ويتهكَّم عليهم ، ويشير من طرف خفي إلى عاقبة هذا الموقف المريب[3] " .

---

(1) جامع البيان 149/20 . وينظر: معالم التنزيل 649/1 ، وفتح القدير 241/4 ، 242 .

(2) التحرير والتنوير 176/21 .

(3) في ظلال القرآن 2793/5 .

إذًا فقد دعا الشَّيْطان أولياءه إلى مأدبة آبائهم وإلى اتِّباع دينهم ومنهجهم مكرًا منه وخداعًا فقبلوا دعوته وفتحوا أيديهم واستبشروا ، وظنُّوا أن الحقَّ ظاهر على أيديهم ، وبهم الرَّاية تعلو خفاقة تكاد أن تعانق السَّماء ، وبكل ودٍّ ومحبة رحَّبوا به ضيفًا عزيزًا في قلوبهم ، فانهارت الحقائق على أيديهم ، وطمست معالم المعرفة أمام أعينهم ، فما ظنُّوه عمارًا وثمارًا رأوه خرابًا ودمارًا ، فـ " ليست دعوة الشَّيْطان لآبائهم ولهم محبة لهم ومودة ، وإنَّما ذلك عداوة لهم ومكر بهم ، وبالحقيقة أتباعه من أعدائه ، الذين تمكَّن منهم وظفر بهم ، وقرَّت عينه باستخفافهم عذاب السَّعير ، بقبول دعوته[1] " .

فليعلم كُلُّ ذي لبٍّ أن منهج الله يشرق في سماء كل قلب يريد أن يحيا حياة الصَّالحين ، ويعيش عيش الآمنين دون جزع أو سخط أو خوف من ماض أو حاضر أو مستقبل لا يدري ما الله مقدِّر فيه ، ولكن حياة الآباء والأجداد وما فيها من نزعة جاهلية دون اعتماد على قواعد التَّشريع فهي صرخة في فلاة ، ورمية بدون رام ، ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾[2] .

الصُّورة الخامسة : سبيل الزِّينة (زين)

يخدع الإنسان نفسه ولا يدري أنَّ شيطانه يسيطر عليه ، وإن كان يدري فالمصيبة أعظم ، يخيِّل إليه أنَّه يعيش في حقيقة وواقع ، مع أنَّه يعيش في وهم وسراب .

يقدِّم الشَّيْطان لأوليائه المتَّبِعين لنهجه السائرين على دربه هديَّة من طراز خاص ، وكأنَّها من عالم الخيال ، مزركشة الألوان ، عالية الجودة والإتقان ، في ثوب جميل يبدو في غاية الإبداع ، ولكنَّه يخدع بها أصحاب النُّفُوس الضَّعيفة ، وذلك بعرضها في غلاف العِزَّة والكرامة مع أنَّها تحمل في طياتها لباس الذِّلة والمسكنة لغير الله سبحانه وتعالى.

فالمسلم قد ينخدع لبعض الوقت بتلك الألوان المختلفة من الزِّينة والجمال الوهمي ، وذلك بقراءة بعض الصَّفحات من كتاب الشَّيْطان ، ولكنَّه ينتبه ويعود إلى ربِّه ورُشْده سريعًا

(1) تيسير الكريم الرَّحمن ص649 .

(2) المائدة الآية 104 .

؛ لأنَّه يعلم أنَّ هذا إنَّما هو لون من ألوان قسم الشَّيْطان : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾[1] .

وأما الكافر فيظلُّ في هيام مع شيطانه ، ينتقل به من صفحة إلى أخرى ، حيث يقلِّب معه الشَّيْطان جميع الصَّفحات كيفما شاء حتى ينتهي به إلى نهاية صفحة الحياة .

وسبيل الشَّيْطان الذي يتلوَّن به في هذه الصورة هو (الزِّينة) ، وهي اسم جامع لكل شيء يُتَزَيَّن به [2] .

وقد تكون الزِّينة حقيقيَّة ، وقد تكون وهمًا وخيالا ، فـ " الزِّينة الحقيقيَّة : مالا يشين الإنسان في شيء من أحواله ... لا في الدُّنيا ولا في الآخرة ، فأمَّا ما يزينه في حالة دون حالة فهو من وجه شين ، والزِّينة بالقول المجمل ثلاث : زينة نفسيَّة كالعلم والاعتقادات الحسنة ، وزينة بدنيَّة : كالقوَّة وطول القامة ، وزينة خارجية : كالمال والجاه ، فقوله تعالى : ﴿ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ [3] فهو من الزِّينة النفسيَّة ، وقوله : ﴿ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ﴾ [4] فقد حمل على الزِّينة الخارجيَّة ... يقال : زانه كذا وكذا وزيَّنه : إذا أظهر حسنه إما بالفعل أو بالقول ... وتزيين الله للأشياء قد يكون بإبداعها مزيَّنة وإيجادها كذلك ، وتزيين النَّاس للشيء يكون بتزويقهم أو بقولهم ، وهو أن يمدحوه ويذكروه بما يرفع منه[5] ".

وقد ارتبطت (الزِّينة) بالشَّيْطان في القرآن الكريم في خمسة مواضع ، والخطاب يأتي فيها جميعًا لهؤلاء الذين كذَّبوا بآيات الله وصدُّوا عنها ، أربعة منها إلى تلك الأمم الذين كذَّبوا رسلهم قبل بعثة النبي – ﷺ – ، والخامسة موجَّهة إلى مشركي مكَّة ، وخاصَّة أبا جهل وأصحابه الخارجين يوم بدر .

فالآية الأولى والثانية خطاب للمكذِّبين برسل الله عامَّة قبل بعثة النبي محمد – ﷺ – ،

(1) الحجر الآيتان 39 ، 40 .
(2) لسان العرب 3/1903 .
(3) الحجرات من الآية 7 .
(4) الأعراف من الآية 32 .
(5) المفردات ص319 ، 320 .

وتزيين الشَّيْطان لهم أعمالهم ، وذلك بعرضها في أبهى صورها حتى يخدعوا بها ، حيث " أغواهم بالمعاصي وحملهم عليها[1]"، في قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[2] .

" فهؤلاء لم يلجأوا إلى الله ، ولم يرجعوا عن عنادهم ، ولم ترد إليهم الشِّدَّة وعيهم ، ولم تفتح بصيرتهم ، ولم تلين قلوبهم ، وكان الشَّيْطان من وراءهم يزيِّن لهم ما هم فيه من الضَّلال والعناد[3] " .

وكذلك زيَّن لهم " أعمالهم الخبيثة[4] " فجمَّلها في أعينهم فقبلوها واستقرَّت في أنفسهم ، وذلك كما في قوله تعالى : ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[5] .

وفي الآيتين عرض لحال الأمم السالفة ، وخاصَّة من ضلَّ منهم عن طريق الحقِّ واتَّبَع هواه ، بل قل هوى الشَّيْطان ، وفي ذلك ذكرى لأولى الألباب .

فلا تحزن يا خير خلق الله على ضلال قومك ، " فإنَّ القوم ليسوا أول من انحرف ، وليسوا أول من جدف ، فقد كان قبلهم منحرفون ومنجدفون ، أغواهم الشَّيْطان ، وزيَّن لهم ما انحرفوا إليه من تصوُّرات وأعمال، فصار وليُّهم الذي يشرف عليهم ويصرفهم[6] ".

ف " تزيين الشَّيْطان أعمالهم كناية عن المعاصي ، فمن ذلك عدم الإيمان بالرُّسُل وهو كمال التَّنظير . ومنها الابتداعات المنافية لما جاءت به الرُّسُل – عليهم السلام – مثل ابتداع المشركين البحيرة والسائبة ، والمقصود : أنَّ المشركين سلكوا مسلك من قبلهم من الأمم التي زيَّن لهم الشَّيْطان أعمالهم ... والمعنى : فالشَّيْطان وليُّ المشركين اليوم ، أي متولِّي أمرهم كما كان وليَّ الأمم من قبلهم إذ زيَّن لهم أعمالهم ، أي لا ولي لهم اليوم غيره ردًّا على زعمهم أنَّ لهم

(1) الجامع لأحكام القرآن 6/425 .
(2) الأنعام الآية 43 .
(3) في ظلال القرآن 2/1089 .
(4) الجامع لأحكام القرآن 14/473.
(5) النحل الآية 63 .
(6) في ظلال القرآن 4/2179 .

الحسنى ، ويكون في الكلام شبه الاحتباك ، والتقدير : لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزَيَّن لهم الشَّيْطان أعمالهم فكان وليَّهم حينئذ ، وهو وليُّ المشركين اليوم يُزَيِّن لهم أعمالهم كما كان وليَّ من قبلهم[1] " .

وأما الآية الثالثة فتتَّجه إلى ملكة سبأ ، والتي كانت تسجد وقومها للشَّمس من دون الله فـ " ﴿ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ أي ما هم فيه من الكفر ﴿ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ أي عن طريق التَّوحيد[2] " ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ . وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾[3] .

" وهنا يعلِّل ضلال القوم بأنَّ الشَّيْطان زيَّن لهم أعمالهم ، فأضلَّهم ، فهم لا يهتدون إلى عبادة الله العليم الخبير[4] " .

وأما الآية الرابعة فهي عنوان قوم عاد وثمود ، حيث " ﴿ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ أي أعمالهم الخسيسة فحسبوها رفيعة ﴿ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ أي عن طريق الحَقِّ[5] " ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾[6] .

" فقد كانت لهم عقول ، وكانت أمامهم دلائل الهدى ، ولكن الشَّيْطان استهواهم وزيَّن لهم أعمالهم ، وأتاهم من هذه الثغرة المكشوفة ، وهي غرورهم بأنفسهم وإعجابهم بما يأتونه من الأعمال ، وانخداعهم بما هم فيه من قوَّة ومال ومتاع ، ﴿ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ سبيل الهدي الواحد المؤدِّي إلى الإيمان ، وضيَّع عليهم الفرصة ﴿ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ يملكون التَّبَصُّر ، وفيهم مدارك ولهم عقول[7] " .

---

(1) التحرير والتنوير 14/194 ، 195 .
(2) الجامع لأحكام القرآن 19/168 .
(3) النمل الآيتان 23 ، 24 .
(4) في ظلال القرآن 5/2638 .
(5) الجامع لأحكام القرآن 20/306 .
(6) العنكبوت الآية 38 .
(7) في ظلال القرآن 5/2735 .

وأما مشركو مكَّة فهم عنوان الآية الخامسة التي يقول فيها ربُّنا – ﷻ – : ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ﴾[1] .

فزينة الشَّيْطان في هذه الآية يمكن أن تفسَّر من خلال وجهين ، حيث " روى أنَّ الشَّيْطان تمثَّل لهم يومئذ في صورة سُراقة بن مالك بن جعثم ، وهو من بني بكر بن كنانة ، وكانت قريش تخاف من بني بكر أن يأتوهم من ورائهم ، لأنَّهم قتلوا رجلا منهم ، فلما تَمَثَّل لهم قال ما أخبر الله عنه ، وقال الضَّحَّاك : جاءهم إبليس يوم بدر برايته وجنوده ، وألقى في قلوبهم أنَّهم لن يهزموا وهم يقاتلون على دين آبائهم[2] ... "

والخطاب لأبي جهل وأصحابه الخارجين يوم بدر لنصرة العير ، خرجوا بالقيان والمغنيات والمعازف [3] .

إذًا فقد " زيَّن الشَّيْطان لهؤلاء المشركين أعمالهم بوسوسته ، وقال لهم بما ألقاه في هواجسهم لا غالب لكم اليوم من النَّاس ، لا أتَّباع محمد الضعفاء ولا غيرهم من قبائل العرب ، فأنتم أعزُّ نفرًا وأكثر نفيرًا وأعظم بأسًا [4] " .

ولكن ماذا كانت النَّتيجة عندما ﴿ تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [5] .

ومن ثم فإنَّ الشَّيْطان يُزَيِّن الأعمال ويُجَمِّلُها في عيون وقلوب أوليائه من بني البشر ، ويبثها في وجدانهم على أنَّها حقائق تقرِّبهم من ربِّهم ، وتباعد بينهم وبين سعير جهنَّم ، مع أنَّ الواقع يشهد أنَّ هذا من باب تلبيس إبليس ، فعنوانه وإن كان ظاهره الرَّحمة ففي باطنه العذاب ، فزينة الباطل مزيفة باهتة الألوان ، تذوب معالمها وتتهاوى مع مرِّ الأيام، فيشقي قلب من يخدع بها ويظنُّ أنَّ فيها النَّجَاة، وأما زينة الحَقِّ فساطعة سطوع الإيمان في القلوب ،

(1) الأنفال من الآية 48 .
(2) الجامع لأحكام القرآن 26/8 . وينظر : معاني القرآن وإعرابه 420/2 .
(3) الجامع لأحكام القرآن 25/8 .
(4) في ظلال القرآن 1531/3 .
(5) الأنفال من الآية 48 .

ومشرقة شروق الشَّمس في كبد السماء ، ثابتة الألوان لا يغيِّر الزَّمان أشكالها ، ولا تعاقب السنون جمالها، ففي أرض طيبة كان غراسها ، ومن ثمرات الإيمان كان قطافها ، فيسعد بها كل من اتَّبع سبيلها ، واقتفى آثارها ، ونأى عن غير هديها ، وفي ذلك عدَّة له وعتاد ﴿ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ . مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾[1] .

الصُّورة السَّادسة : سبيل التَّسويل (س و ل)

وهبنا الله – ﷻ – نعمة العقل حتى نميِّز بين الأشياء – خبيثها وطيِّبها – ، ووضع لنا خطوطًا حمراء لا نتعدَّاها حتى لا نقع فيما حَرَّم علينا ، فإذا حكَّمنا شرع الله – ﷻ – هدانا الله للإيمان ووفَّقنا إليه ، فأرحنا عقولنا ، واستراحت ضمائرنا ، وإذا طغت علينا الشَّهوات ، وانحت جباهنا لغير الله غابت عقولنا عن الوعي ، وتجَّهزت قلوبنا للاحتضار فحكَّمنا جانب الهوى والشَّيْطان وكلنا الله لأنفسنا .

وإذا كان الصِّراع يحتدم بين الشَّيْطان والصَّالحين من عباد الله – ﷻ – ، ويزداد لهيبه وتتأجج نيرانه ، فتحدث حالة من قوَّة الدَّفع ونوازع الفطرة السويَّة والعقيدة الصَّحيحة ، فإنَّه في هذا المشهد ومع أوليائه في حالة استرخاء تام ، يخفي الحقائق ويظهر الأباطيل ويزيِّنها لهم فتبدو في صورة الحَقِّ ، وذلك عن طريق (التَّسويل) الذي يتوافق مع أصحاب النُّفُوس المريضة والقلوب الخاوية إلا من آمال الدنيا ونسيان الآخرة .

وقد ذكر ابن منظور أن " سَوَّلت له نفسه أمرًا : زيَّنته له ، ووسوس له الشَّيْطان : أغراه ... التَّسويل : تحسين الشيء وتحبيبه إلى الإنسان ليفعله أو يقوله[2] "

وذكر الرَّاغب أن " التَّسويل : تزيين النفس لما تحرص عليه ، وتصوير القبيح منه بصورة الحسن[3] " .

وأما ابن عاشور فقال عنه هو : " تسهيل الأمر الذي يستشعر منه صعوبة أو ضر وتزيين ما ليس بحسن " [4] .

---

(1) إبراهيم من الآية 42 ، والآية 43 .

(2) لسان العرب 2157/5 . وينظر : الصحاح 1733/5 .

(3) المفردات ص 363 . وينظر : القاموس القويم 337/1 .

(4) التحرير والتنوير 116/26 .

والذين سَوَّل لهم الشَّيْطان هم هؤلاء الذين قال الله – ﷻ – فيهم : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴾[1] .

وسوَّل لهم في الآية الكريمة بمعنى زيَّن لهم[2] ، والذين سَوَّل لهم الشَّيْطان في الآية الكريمة موضع اختلاف بين العلماء على وجهين:

الوجه الأول : اليهود

قال قتادة : إنَّها نزلت في قوم من اليهود كانوا قد عرفوا من التَّوراة أمر محمد – ﷺ – وتبيَّن لهم الهدى بهذا الوجه ، فلمَّا باشروا أمره حسدوه فارتدُّوا عن ذلك القدر من الهدى [3] .

"وعن ابن جريج – ﷺ – في قوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ﴾ قال : اليهود ارتدُّوا عن الهدي بعد أن عرفوا أنَّ محمدًا – ﷺ – نبي ﴿ ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴾ قال : أملى الله لهم بأنَّهم قالوا للذين كرهوا ما نَزَّل الله قال : يهود تقول للمنافقين من أصحاب النبي – ﷺ – وكانوا يسرُّون إليهم إنَّا﴿ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ﴾ وكان بعض الأمر أن يعلموا أن محمدًا نبيٌّ وقالوا : اليهودية الدِّين فكان المنافقون يطيعون اليهود بما أمرتهم ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾ قال : سرُّ ذلك القول[4]" .

الوجه الثاني : المنافقون

وعن المنافقين الذين زَيَّن لهم الشَّيْطان اختلفت الآراء كما ذكر ابن عاشور :

الرأي الأول : يجوز أن يكون مرادًا به قوم من أهل النِّفاق كانوا قد آمنوا حقًّا ثم رجعوا إلى الكفر؛ لأنَّهم كانوا ضعفاء قليلي الاطمئنان، وهم الذين مثلهم الله في سورة البقرة بقوله : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾[5] ، والارتداد على أدبارهم على هذا الوجه : تمثيل للراجع إلى الكفر بعد الإيمان بحال من سار

(1) محمد الآية 25 .

(2) ينظر : مجاز القرآن 215/2 ، ومعاني القرآن للفراء 63/3 ، ومعاني القرآن وإعرابه 14/5 .

(3) المحرر الوجيز 71/15 ، 72 .

(4) الدر المنثور 503/7 .

(5) البقرة من الآية 17 .

ليصل إلى مكان ثم ارتدَّ في طريقه ... والهدى : الإيمان ، وتبيُّن الهدى لهم على هذا الوجه تبيُّن حقيقي لأنَّهم ما آمنوا إلا بعد أن تبيَّن لهم هدى الإيمان .

الرأي الثاني : يجوز أن يكون مرادًا به جميع المنافقين ، عبَّر عن تصميمهم على الكفر بعد مشاركتهم المسلمين في أحوالهم في مجلس النبي – ﷺ – والصَّلاة معه وسماع القرآن والمواعظ بالارتداد لأنَّه مفارقة لتلك الأحوال الطَّيِّبة ، أي رجعوا إلى أقوال الكفر وأعماله وذلك إذا خلوا إلى شياطينهم ، وتبيُّن الهدى على هذا الوجه كونه بيِّنًا في نفسه ، وهو بيِّن لهم لوضوح أدلته ولا غبار عليه ، فهذا التبيُّن من قبيل قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِ ﴾[1] أي ليس معه ما يوجب ريب المرتابين .

الرأي الثالث : يجوز أن يكون مرادًا به قومًا من المنافقين لم يقاتلوا مع المسلمين بعد أن علموا أن القتال حَقٌّ ، وهذا قول ابن عباس والضَّحَّاك والسَّدِّي ، وعليه فلعل المراد : الجماعة الذين انخزلوا يوم أحد مع عبد الله بن أُبَيٍّ بن سلول ، والارتداد على هذا الوجه حقيقة لأنهم رجعوا عن موقع القتال بعد أن نزلوا به فرجعوا إلى المدينة وكانت المدينة خلفهم ، وهذا عندي أظهر الوجهين وأليق به بعد ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِ ﴾ إلى قوله ﴿ وأدبارهم ﴾ ، والهدى على هذا الوجه هو الحَقُّ ، أي من بعد ما علموا أن الحقَّ قتال المشركين[2].

فلقد أملى الله لهؤلاء المنافقين وتركهم ، والشَّيطان سَوَّل لهم ، فلم يوفقهم للهدى من أجل أنَّهم ﴿ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ ﴾ عن الأمر بقتال أهل الشرك من المنافقين ﴿ سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِ ﴾ الذي هو خلاف لأمر الله تبارك وتعالى ، وأمر رسول الله – ﷺ –[3] .

إذًا فقد زيَّن الشَّيْطان لهؤلاء أوهؤلاء سوء صنيعهم وقبيح أفعالهم ، فجحدوا نبوَّة النبيِّ محمد – ﷺ – وكفروا به ، وأصغوا لهوى الشَّيْطان وما صوَّره لهم ، فمالت قلوبهم إلى اتِّباع الباطل ، وصَدَّت عن قبول الحَقِّ .

---

(1) البقرة من الآية 2 .

(2) التحرير والتنوير 115/26 ، 116.

(3) جامع البيان 218/21 ، 219 .

فعجبًا لتلك العقول التي أنارها الله بالإيمان فأسرى نور الحَقِّ فيها ، وبدت ملامحه وضوح العيان ، ولكن القلوب أبت إلا الكفر والضَّلال ، واتِّباع نهج الشَّيْطان ﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَـٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴾[1] .

الصُّورة السَّابعة : سبيل الضَّلال (ض ل ل)

يأتي الشَّيْطان لبني الإنسان في صورة النَّاصح الأمين ، يوهمهم بشتَّى الطرق ومختلف الصُّور أنَّهم على الحَقِّ وغيرهم على الباطل ، فيتحكَّم في عقولهم وتوجيه قلوبهم حتى يتحاكموا إليه في أمورهم ، وتحديد مصائر حياتهم وكأنَّه غدا عنوان دربهم وطريق هدايتهم ، فسبَّحوا بحمده وخضعوا له فكان المآل ضلال وصد عن سبيل الله وصراطه المستقيم .

والمنافقون من هؤلاء الذين ساروا على درب الشَّيْطان ابتغاء العِزَّة والسَّعَادة فرضوا بحكمه واستجابوا لدعوته في حين رفضوا حكم الله – ﷻ – وحادوا عن اتِّباع منهجه ، فتحققَّت فيهم إرادة الشَّيْطان ، فأصبح سلطانه عليهم أقوى من سلطانهم على أنفسهم فأذلَّهم الله في الدُّنيا والآخرة .

ومن خلال سبيل (الضَّلال) ظهر توجيه الشَّيْطان وإرادته لهذه الفئة الضالَّة ، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴾[2] .

والضَّلال هو: " العدول عن الطَّريق المستقيم ، ويضاده الهداية ...ويقال الضَّلال لكل عدول عن المنهج عمدًا كان أو سهوًا ، يسيرًا كان أو كثيرًا ؛ فإنَّ الطَّريق المستقيم الذي هو المرتضى صعب جدًّا[3] " .

ويقال : " ضَلَّ الكافر : غاب عن الحجَّة المقنعة وعدل عن الطَّريق المستقيم ولم يعرف الحَقَّ [4] " .

---

(1) الطلاق الآية 9 .

(2) النساء الآية 60 .

(3) المفردات ص 440 .

(4) القاموس القويم 394/1 .

وإلى هؤلاء الذين عرفوا حكم الله ثم أعرضوا عنه يتَّجه الشَّيْطان بضلاله ومكره وخداعه ، فلم يتمكَّن الإيمان من قلوبهم ولم يذوقوا حلاوته ، بل اكتفى لسانهم بنطق الشهادتين ولكن الحقد على الإسلام وأهله هو أساس منهجهم ، وقاعدة انطلاقهم ، وعنوان سبيلهم ، وهؤلاء أشدُّ على المسلمين من أعدائهم ، وهم جماعة المنافقين .

" ويروي أن رجلا من المنافقين نازعه رجل من اليهود ، فقال اليهودي بيني وبينك أبو القاسم ، وقال المنافق بيني وبينك الكاهن ، فلم يرض اليهودي بالكاهن وصار إلى النبي – ﷺ – فحكم لليهودي على المنافق ، فقال المنافق : لا أرضي ، بيني وبينك أبو بكر ، فحكم أبو بكر أيضًا لليهودي ، فلم يرض المنافق ، وقال : بيني وبينك عمر فصار إلى عمر فأخبره اليهودي بأنَّ المنافق قد حكم عليه النبيُّ – ﷺ – وأبو بكر فلم يرض بحكمهما ،فقال عمر للمنافق: أكذاك ؟ قال : نعم ، فقال عمر اصبروا فإن لي حاجة أدخل فأقضيها وأخرج إليكما ، فدخل وأخذ سيفه وخرج إلى المنافق فضربه بالسيف حتى قتله ، فجاء أهله فشكوا عمر إلى النبي – ﷺ – فسأله عن قِصَّتَه فقال عمر : إنَّه ردَّ حكمك يا رسول الله ، فقال رسول الله : أنت الفاروق[1] " .

" وقيل بل الضَّلال في الآية يتَّجه إلى جماعة اليهود والمنافقين ، هؤلاء الذين يزعمون أنَّهم صدَّقوا بما أنزل إليك من الكتاب[2] ، وإلى الذين يزعمون أنَّهم آمنوا بما أنزل من قبلك من الكتب[3] ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ ﴾ في خصومتهم ﴿ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ ﴾ يعني : إلى من يعظِّمونه ، ويصدرون عن قوله، ويرضون بحكمه من دون حكم الله ﴿وقد أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾ ... وقد أمرهم الله أن يكذِّبوا بما جاءهم من الطَّاغوت ، يعني أن الشَّيْطان يريد أن يصُدَّ هؤلاء المتحاكمين إلى الطَّاغوت عن سبيل الحَقِّ والهدى ، فيضلهم عنها ضلالا بعيدًا ، يعني : فيجور بهم عنها جورًا شديدًا[4] " .

---

(1) معاني القرآن وإعرابه 69/2 . وقيل في سبب نزول الآية أقوال أخرى . ينظر: جامع البيان 507/8 ، 508 ، والمحرر الوجيز 161/4 ، 162 ، والتحرير والتنوير 102/5 : 104 .

(2) هم المنافقون ، وقيل هؤلاء المنافقون من اليهود أظهروا الإسلام . ينظر:المحرر الوجيز 161/4 ، والتحرير والتنوير 102/4 .

(3) هم اليهود . المحرر الوجيز 161/4 .

(4) جامع البيان 507/8 .

ولكن ماذا يريد الشَّيطان من هؤلاء ؟ ، " ﴿يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾ : أي يحبُّ ذلك ويحسِّنه لهم ؛ لأنَّه ألقى في نفوسهم الدُّعاء إلى تحكيم الكهان والانصراف عن حكم الرَّسول ، أو المعنى : يريد أن يضلَّهم في المستقبل بسبب فعلتهم هذه لولا أن أيقظهم الله وتابوا مما صنعوا ، والضَّلال البعيد هو الكفر ، ووصفه بالبعيد مجاز في شدَّة الضَّلال بتنزيله منزله جنس ذي مسافة كان هذا الفرد منه بالغًا غاية المسافة ، قال الشاعر : ضيَّعت حزمي في إبعاده الأملا[1] " .

فعجبًا لمن ادَّعى الإسلام ثم يأبى تحكيم شريعة الرَّحمن ويتحاكم إلى الشَّيْطان ، " فكيف يجتمع هذا والإيمان ؟ فإنَّ الإيمان يقتضي الانقياد لشرع الله وتحكيمه في كل أمر من الأمور ، فمن زعم أنَّه مؤمن واختار حكم الطاغوت على حكم الله ، فهو كاذب في ذلك . وهذا من إضلال الشَّيْطان إياهم ، ولهذا قال : ﴿ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾ عن الحَقِّ[2] " .

وقد أقسم الشَّيْطان على إضلال بني آدم كما حدَّثنا ربُّنا- ﷻ - في قرآنه الكريم : ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ ﴾[3] أي : لأصرفنَّهم عن طريق الهدي[4]، وهو الصِّرَاط المستقيم ضلالا في العلم ، وضلالا في العمل[5] .

وقد بَرَّ الشَّيْطان بقسمه عندما قبل هؤلاء المنافقون واليهود صفقته ورضيا به حكمًا ، وانحرفا عن منهج الله – ﷻ – وانصرفا عن درب الهدى والرَّشاد ، وحادا كلية عن قناة الحَقِّ الشَّرعيَّة فتبعوا إرادة الشَّيْطان وتركوا إرادة الرَّحمن سبحانه وتعالى،﴿ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴾[6].

(1) التحرير والتنوير 105/5. وعجز البيت: وما ارعويت وشعبًا رأسي اشتعلا . شرح ابن عقيل . تحقيق . محمد محيي الدين عبد المجيد 294/2 –دار الفكر – دمشق 1985م .

(2) تيسير الكريم الرَّحمن ص184 .

(3) النساء من الآية 119 .

(4) الجامع لأحكام القرآن 389/5 .

(5) معالم التنزيل 203/1 .

(6) طه الآية 124 .

الصُّورة الثَّامنة : سبيل الاستهواء (هـوى)

بعض الناس يريد أن يعيش في حياته على هواه دون حدود أو قيود أو ضوابط ، فكلَّما حَدَّثته نفسه أو حدَّثه شيطانه بقبيح ما فعله، حتى ترك لنفسه العنان تفعل ما شاء ، وفي أي وقت تشاء ، فأصبح فعل المعاصي ديدنه وهواه ، وارتكاب الآثام هدفه ومبتغاه ، ولكن هل يسعد الإنسان بتلك الحريَّة المطلقة ؟ .

قد يتخيَّل الإنسان أو يخيِّل له شيطانه أنَّه قد يعيش سعيدًا في عالم الهوى ، وأن سُبُل السَّعادة فيه تركع أمام قدميه فلا تنفد فيه لذَّات الدُّنيا ونعيمها ، ولكنَّه لا يدري أن الهوى يمسك بمفتاح قلبه وتوجيه عقله فيصبح من السَّاجدين له المسبِّحين بحمده ، فلا يجد في قلبه سبيلا لمرضاة ربِّه وهدي نبيِّه محمد – ﷺ – فتمضي الحياة ، وتمضي معها كل سُبُل السَّعادة ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ﴾[1] .

وعلى ذلك فالهوى غالبًا يكون سبيلا من سُبُل الشَّيْطان ؛ لأنَّه يقال : " ذلك للنَّفْس المائلة إلى الشَّهوة . وقيل : سُمِّي بذلك لأنَّه يهوي بصاحبه في الدُّنيا إلى كلِّ داهية [2] " .

فـ " هَوِيه يهواه – من باب فَرِح – هَوىً : أحَبَّه ، وأكثر مايستعمل في الباطل وفي الشَّهوات الضَّارَّة ، قال تعالى : ﴿ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾[3] ، أي ما تهواه أنفسكم وما تشتهيه فيضلكم ذلك عن الحقِّ ... واستهواه من الهوى : بمعنى السُّقوط ؛ أي حمله على السُّقوط وجذبه إليه ، أو استهواه من الهوى ، وهو الميل والحبُّ ، أي جذبه لحبِّه وأغراه باتِّباعه[4] " .

والمعنيان محتملان في قوله – ﷻ – : ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[5] .

---

(1) القصص من الآية 50 .

(2) المفردات ص 796 .

(3) النساء من الآية 135 .

(4) القاموس القويم 310/2 ، 311 .

(5) الأنعام الآية 71 .

" فالشَّيَاطين جعلته يسقط في حبائلها أو جعلته يميل إلى الضَّلال ويُسْحَر به ويحبُّه فيسير مع الهوى بعيدًا عن الرأي والحكمة[1] " .

إذًا فاستهواء الشَّيَاطين في هذه الحالة قد يكون من باب السُّقوط في الهوى والذَّلل ، فاستهواه بمعنى أهواه مثل استزلَّ بمعنى أزلَّ[2] ، أي ذهبت بهواه وعقله[3]، فهو الحيران الذي يشبِّه له الشَّيَاطين فيتَّبعها حتى يهوى في الأرض فيضل[4]، وقد يكون من قول القائل : هَوَى فلان إلى كذا يهوى إليه ، ومن قول الله تعالى ذكره : ﴿ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ ﴾[5] بمعنى تنزع إليهم وتريدهم[6] ، أو استغوته وزَيَّنت له هواه ودعته إليه ، يقال : هوى يهوى إلى الشيء :أسرع إليه ، وقال الزَّجاج : هو من هوى يهوي ، من هوى النَّفس : أي زيَّن له الشَّيْطان هواه [7] .

فالاستهواء استفعال ، أي طلب هوى المرء ومحبَّته ، أي استجلاب هوى المرء إلى شيء يحاوله المستجلب[8] .

" وهذا مثل ضربه الله تعالى لمن كفر بالله بعد إيمانه فاتَّبع الشَّيَاطين من أهل الشِّرك بالله ، وأصحابه الذين كانوا أصحابه في حالة إسلامه ، المقيمون على الدِّين الحقِّ يدعونه إلى الهوى الذي هم عليه مقيمون ، والصَّواب الذي هم به متمسِّكون ، وهو له مفارق ، وعنه زائل ، يقولون له : ائتنا ، فكن معنا على استقامة وهدى ، وهو يأبى ذلك ويتَّبع دواعي الشَّيْطان ، ويعبد الآلهة والأوثان[9] " .

وما أجمل تشبيه هذه الحالة بحالة من سيطرت عليه الشَّيَاطين وزيَّنت له سوء عمله فرآه

---

(1) القاموس القويم 311/2 .
(2) التحرير والتنوير 301/7 .
(3) لسان العرب 4728/6 .
(4) مجاز القرآن 196/1 .
(5) إبراهيم من الآية 37 .
(6) جامع البيان 450/11، 451 .
(7) الجامع لأحكام القرآن 18/7 . وينظر: معاني القرآن وإعرابه 262/2 .
(8) التحرير والتنوير 301/7 .
(9) جامع البيان 451/11 .

حسنًا ، فـ " شبهت بهذا التمثيل حالة من فرض ارتداده إلى ضلالة الشِّرك بعد هدى الإسلام لدعوة المشركين إياه وتركه أصحابه المسلمين الذين يصدُّونه عنه ، بحال الذي فسد عقله باستهواء من الشَّيَاطين والجِنِّ ، فتاه في الأرض بعد أن كان عاقلا عارفًا بمسالكها ، وترك رفقته العقلاء يدعونه إلى موافقتهم[1] " .

ولكن لم يكن الله – ﷻ – ليترك أهل الدنيا في خضم هذا الهوى، يعيثون ويسيحون في الأرض فسادًا ، تتحكَّم فيهم أهوائهم ، وتسيِّرهم شهواتهم ، ويتَّبِعون سُبُل شياطينهم ، بل كان لابد من توضيح المنهج حتى تتَّضح الرؤية ، وتزول الغُمَّة ، وينقشع الظَّلام ، فتثبت الحُجَّة .

لذلك جاءت الآية الكريمة " تنبيه من الله تعالى ذكره نبيه – ﷺ–على حُجَّته على مشركي مكَّة من عبدة الأوثان : قل يا محمد لهؤلاء العادلين بربِّهم الأوثان والأنداد والآمرين لك باتِّباع دينهم وعبادة الأصنام معهم : أندعو من دون الله حجرًا أو خشبًا لا يقدر على نفعنا أو ضرِّنا ، فنخصه بالعبادة دون الله ، وندع عبادة الذي بيده الضر والنفع والحياة والموت، إن كنتم تعقلون فتميِّزون بين الخير والشَّرِّ ، فلا شكَّ أنَّكم تعلمون بأنَّ خدمة ما يُرْتَجى نفعه ويُرْهب ضرُّه أحَقُّ وأولى من خدمة مَنْ لا يرجى نفعه ولا يخشى ضرُّه ﴿ **وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا** ﴾ ... ونرد على أدبارنا فنرجع القهقري خلفنا لم نظفر بحاجتنا...وإنَّما يراد به في هذا الموضع: ونُرَدُّ من الإسلام إلى الكفر بعد إذ هدانا الله فوفَّقنا له، فيكون مثلنا في ذلك مثل الرَّجل الذي استتبعه الشَّيْطان يهوي في الأرض حيران[2]" .

فهذه صورة معنوية حيَّة تتجسَّد فيها حالة الحيرة التي يقع فيها هؤلاء ، ارتباك يمزِّق قلوبهم ، وتشتُّت يضعف إيمانهم ، وكأنَّها صورة رجل ينظر بطرف عينه يمنة ويسرة ، تارة إلى هنا وتارة إلى هناك ، حالة من الصراع الداخلي والخارجي ، بين إيمان يدفعه إلى قبول الحَقِّ ، وإلى كفر يدفعه إلى رفضه ، والشَّيْطان مِنْ خلفه يزيِّن له كل سوء ، ويدفعه إلى كل قبيح ، وفي الوقت نفسه له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا " إنَّه مشهد حيٌّ شاخص متحرِّك للضَّلالة

(1) التحرير والتنوير 302/7 .

(2) جامع البيان 450/11 .

والحيرة التي تنتاب من يشرك بعد التَّوحيد ، ومن يتوزَّع قلبه بين الإله الواحد ، والآلهة المتعددة من العبيد ! ويتفرَّق إحساسه بين الهدى والضَّلال ، فيذهب في التيه ، إنَّه مشهد ذلك المخلوق التعيس :- ﴿ ٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ - ولفظ الاستهواء لفظ مصور بذاته لمدلوله- ويا ليته يتبع هذا الاستهواء في اتجاهه ، فيكون له اتجاه صاحب القصد الموحد - ولو في طريق الضَّلال ! - ولكن هناك ، من الجانب الآخر ، أصحاب له مهتدون ، يدعونه إلى الهدى ، وينادونه ﴿ ٱئْتِنَا ﴾-وهو بين هذا الاستهواء وهذا الدُّعاء ﴿ حَيْرَانَ ﴾ لا يدري أين يتَّجه ، ولا أي الفريقين يجيب ! إنَّه العذاب النَّفسي يرتسم ويتحرَّك ، حتى ليكاد يحسُّ ويلمس من خلال التعبير[1]! "

والآية الكريمة تهدف إلى " تأييس المشركين من ارتداد بعض المسلمين عن الدِّين ، فقد كان المشركون يحاولون ارتداد بعض قرابتهم أو من لهم به صلة[2]" .

فهذه القلوب حيارى لا دليل لهم ، ولا قائد ينظِّم خطواتهم ومنهج حياتهم ، فغشاوة الباطل قد أغلقت عيونهم ، وطمست على بصيرتهم فلم يروا حقًّا الله حقًّا وظنُّوا الباطل صدقًا ، فكان الشَّيْطان أقرب إليهم ، فأظلَّهم في ظلِّ التِّيه والضَّلال ، وأبعدهم عن منهج السُّنَّة والكتاب ، أما عَلِم هؤلاء أن سبيل الله هو دليل الحائرين وأمل اليائسين ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[3] .

الصُّورة التَّاسعة : سبيل الوحي (و ح ى)

على كلمة سواء يجتمع هدف الشَّيْطان وأوليائه المؤمنين به ، حيث يعرض الشَّيْطان تعاليم الباطل عند عرض الرَّحمن - ﷻ - تعاليم الحَقِّ ، وذلك عن طريق الوحي الذي يقذفه في قلوب أوليائه ، حيث يقدِّم لهم مائدة شهيَّة فيها من أنواع المأكولات ما لذَّ وطاب ، وذلك بما يوافق طبائعهم غير السَّويَّة وفطرتهم غير المستقيمة ، فتشبع بطونهم وتزداد شهواتهم ولكن تجوع قلوبهم وتظمأ عقولهم .

والوحي هو : الإشارة ، والكناية ، والرِّسالة ، والإلهام ، والكلام الخفي ، وكل ما ألقيته

(1) في ظلال القرآن 2/ 1131 ، 1132 .

(2) التحرير والتنوير 7/ 299 .

(3) الأنعام من الآية 71 .

إلى غيرك ، ويقال : وحَيْتُ إليه الكلام وأوحيت ، وهو أن تكلِّمه بكلام تخفيه[1] .

ويقال : وَحَى له يحي وحْيًا : قذف في قلبه شيئًا وأعلمه إياه في سرعة وخفاء[2].

إذًا فالوحي : هو الكلام الخفي ، كالوسوسة وأريد به ما يشمل إلقاء الوسوسة في النَّفس من حديث يزوَّر في صورة الكلام[3].

ومن خلال آيتين نصَّ القرآن الكريم على هذا الوحي الشَّيْطاني:-

الآية الأولى : قال الله تعالى :﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾[4] .

فالآية تذكير من الله – ﷻ – لنبيِّه محمد – ﷺ – بأنَّ ما حدث له من قومه سنَّة كونيَّة ، فقبول وحي الشَّيَاطين من تزيين الباطل وتجميله وعرضه في صورة الحَقِّ حتى يخدع أولياءه لم يكن من مشركي مكَّة فقط ، بل هو عنوان عام في كل أعداء الرُّسُل والأنبياء ، حيث : " يقول تعالى مسلِّيًا لرسوله محمد – ﷺ – : وكما جعلنا لك أعداء يردُّون دعوتك ، ويحاربونك ، ويحسدونك ، فهذه سنتنا ، أن نجعل لكل نبيٍّ نرسله إلى الخلق أعداء، من شياطين الإنس والجِنِّ، يقومون بصدِّ ما جاءت به الرُّسُل﴿ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ أي يزيِّن بعضهم لبعض الأمر الذي يدعون إليه من الباطل ، ويزخرفون له العبارات حتى يجعلوه في أحسن صورة ، ليغتر به السُّفهاء ، وينقاد له الأغبياء ، الذين لا يفقهون الحقائق ، ولا يفقهون المعاني ، بل تعجبهم الألفاظ المزخرفة ، والعبارات المموهة ، فيعتقدون الحقَّ باطلا والباطل حقًّا[5] ... " .

فحقيقة هذه الصُّورة هي " أنَّ إبليس – فيما ذكر – جعل فرقة من شياطينه مع الإنس ، وفرقة مع الجِنِّ ، فإذا التقى شَيْطان الإنسيِّ وشَيْطان الجنيِّ قال: أضللت صاحبي بكذا وكذا ، فأضل به صاحبك ، ويقول له شيطان الجنيِّ مثل ذلك ، فهذا وحي بعضهم على بعض[6] " .

---

(1) الصحاح 2520/6 . وينظر : المفردات ص 809 ، ولسان العرب 4787/6.

(2) القاموس القويم 324/2 .

(3) التحرير والتنوير 10/8 .

(4) الأنعام من الآية 112 .

(5) تيسير الكريم الرَّحمن ص269 . وينظر : معاني القرآن وإعرابه 284/1 ، والتحرير والتنوير 8/8 .

(6) معاني القرآن للفراء 351/1 . وينظر : تفسير مقاتل بن سليمان 366/1 .

ومن هنا فإن " شَيَاطين الجِنِّ يلقون الخواطر المقدَّرة على تعليم الشَّرِّ إلى شياطين الإنس ، فيكونون زعماء لأهل الشَّرِّ والفساد[1] " .

وعلى ذلك فإن " هؤلاء الشَّيَاطين – من الإنس والجِنِّ – الذين قدَّر الله أن يكونوا عدوًّا لكل نبيٍّ ، يخدع بعضهم بعضًا بالقول المزخرف الذي يوحيه بعضهم إلى بعض – ومن معاني الوحي التأثير الداخلي الذي ينتقل به الأثر من كائن إلى كائن آخر – ويغر بعضهم بعضًا ، ويحرِّض بعضهم بعضًا على التمرُّد والغواية والشَّرِّ والمعصية[2] " .

ثم يأتي الوحي الشَّيْطاني في الآية الثانية في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾[3] .

فوحي الشَّيَاطين في الآية يتَّجه نحو الوسوسة ، حيث " يوسوس الشَّيْطان لوليِّه فيلقي في قلبه الجدال بالباطل[4] " .

والجدال بالباطل في الآية يتَّجه إلى تصوير حال مشركي مكَّة وما أوحى به الشَّيَاطين في قلوبهم من وسوسة خبيثة تجعلها دائمًا في حالة دفع للحَقِّ وقبول للباطل، وذلك بتغيير شرع الله الذي شرعه لهم، حيث " إنَّ المشركين حين سمعوا تحريم الله ورسوله الميتة ، وتحليله للمذكَّاة ، وكانوا يستحلُّون أكل الميتة قالوا معاندة لله ورسوله ، ومجادلة بغير حُجَّة ولا برهان أتأكلون ما قتلتم ، ولا تأكلون ما قتل الله؟ يعنون بذلك الميتة ، وهذا رأي فاسد ، لا يستند على حُجَّة ولا دليل بل يستند إلى آرائهم الفاسدة التي لو كان الحَقُّ تبعًا لها لفسدت السَّماوات والأرض ، ومن فيهن ، فتبًا لَمَنْ قدَّم هذه العقول على شرع الله وأحكامه ، الموافقة للمصالح العامة والمنافع الخاصَّة ، ولا يستغرب هذا منهم ، فإنَّ هذه الآراء وأشباهها صادرة عن وحي أوليائهم من الشَّيَاطين ، الذين يريدون أن يضلُّوا الخلق عن دينهم ، ويدعوهم ليكونوا من أصحاب السَّعِير[5] " .

---

(1) التحرير والتنوير 10/8 .

(2) في ظلال القرآن 1189/3 .

(3) الأنعام الآية 121 .

(4) معاني القرآن وإعرابه 287/2.

(5) تيسير الكريم الرَّحمن ص271 . وينظر : المحرر الوجيز 140/6.

فهل هذه هي العقول التي تريد أن تكون لها قيمة في المجتمعات الإنسانية وهي ما زالت تفكر بفكر الجاهلية ؟ فمن أين تأتي الحضارة التاريخية والنَّهضة في جميع المجالات الإنسانية والفكر البائد يسيطر على جميع أركانها ؟ فهل ترقى المجتمعات بفكرها وحضارتها عندما تَغِيب أو تُغَيَّب عن منهج ربِّها ؟ .

فليعلم هؤلاء وأمثالهم ممن يسيرون على نهجهم بأنَّ وحي الشَّيْطان هدفه خداع أوليائه ، وكف أبصارهم عن عيون الحقيقة ، وذلك بمعارضة شرع لله ومنهجه ، واتِّباع العقول الزائفة التي لا تبغي إلا التَّحريف والتَّبديل ، ولكن : ﴿ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[1] ، فحكم الله ماض حتى ولو كان الشَّيْطان سيفًا مسلطًا على رقاب وقلوب العباد ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[2] .

فليصدح الشَّيْطان وليغرِّد في سماء الخارجين عن حدود الله ، وليتشكَّل بجميع صوره وأشكاله ، وليقدِّم جميع سُبُله وإمكاناته ، فهذا بحره الذي يجيد السِّباحة فيه ، وملعبه الذي يقدم فيه جميع مهاراته ، ولكن عالم الأنبياء والرُّسُل ، والصَّالحين من عباد الله – ﷻ – فبينه وبينهم حجاب ، يحجب عنهم ظلامه الدَّامس وخبثه الدَّفين ، فنور العلم يهديهم ويبصِّرهم بأمور دينهم ودنياهم ، فالصَّلاح عنوانهم ، والخير طريقهم ، والجَنَّة – بإذن الله – عاقبة أمرهم ، والنهاية ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ . وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾[3] .

(1) التوبة من الآية 32 .

(2) المائدة من الآية 50 .

(3) النساء من الآية 13 ، والآية 14 .